المحاضرة الرابعة: النقد السيميائي

1-مقدمة:

يجمع كثير من النقد والباحثين على أن السيميائية خرجت من عباءة الدرس اللساني الحديث، الذي طبع الدراسات اللغوية بطابع العلمية ابتداء من مطلع القرن العشرين، بفضل جهود رائده دي سوسير. هذا الأخير الذي أرسى مبادئ الدرس السيميائي وضبطه في "دراسة العلامات أو الإشارات دراسة منتظمة"، يتضح ذلك في قوله: "إنه من الممكن أن نتصور علما يدرس حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية، ونقترح تسميته semiilogie (علم الدلائل) وليست الألسنية سوى قسم من هذا العلم العام، والقوانين التي يكشفها علم الدلائل سيكون تطبيقها ممكنا على الألسنية".

أما الأمريكيون فيفضلون مصطلح "السيميوطيقا"، وهي التسمية التي أطلقها الفيلسوف الأمريكي "بيرس" على هذا العلم. أما في النقد العربي فقد ترجم المصطلح إلى "السيمياء" في محاولة لتعريبه.

2-الخلفيات المعرفية للنقد السيميولوجي:

أ_ التراث الإغريقي واليوناني:

ارتبطت السيمياء بمفهوم العلامة، هذا الأخير الذي يضرب بجذوره في تاريخ التفكير الفلسفي، بدءا بأفلاطون وأرسطو اللذين اشتغلا مطولا في ميدان اللغة على اعتبار أنها الحجر الأساس في نظرية المعرفة، وقد توصلا من خلال أبحاثهما إلى التمييز بين دلالة الأسماء والطبيعة التداولية، "أي ثمة دلالة تتكون من دال ومدلول وهناك طبيعة تداولية مرجعية، ويذهب أمبرتو ايكو إلى أن الفهم الدلالي لدى أفلاطون وأرسطو قابل بين تداولية الأقوال

ودلالة الوحدات السيميائية، أي تحويل الاهتمام من أنظمة الدلالة إلى عمليات التواصل. فأفلاطون وأرسطو تجاوزا التحليل الدلالي للعلامة من حيث هي علامة (الصورة الصوتية والشيء العياني) إلى مرحلة التوظيف التداولي بقصد التواصل".

يتضح من النص السابق أن جهود الفلاسفة اليونان قد سبقت جهود المحدثين بعقود طويلة من الزمن، وأنها شكلت أرضية خصبة لتطور النظرية السيميائية في تجلياتها الراهنة.

ب- اللسانيات الحديثة:

لقد دعا دي سوسير إلى الاهتمام بالعلامة اللغوية، مع التركيز على العلاقات التي تربط بين والوحدات والعناصر، كما أقر باعتباطية العلامة، وهكذا التقت اللسانيات بالسيمياء، فهذه الأخيرة أيضا نادت باعتباطية الدليل اللساني. والدال هو الصورة الصوتية والمودلول هو ما تثيره تلك الصورة في ذهن المتلقي، ولكن "ولئن كان فردينار دي سوسير هو الذي استخلص مسمى السيميولوجيا من علائقه الطبية في المهاد الأغريقي ليطلقه على علم العلامة أو الإشارة، فإنه هو أيضا أول من ميز اللسانيات عن السيميولوجيا حين أصر على أن السيميولوجيا أصل واللسانيات فرع منها".

جـ الشكلانية الروسية:

يعد الاتجاه الشكلي من أهم المذاهب المؤثرة في ميدان الأدب ونقده، وقد ظهر في روسيا في الفترة ما بين 1910 و1930، وأحدث ثورة مفاهيمية في النقد الأدبي على يد رواده أمثال: فيكتور شيكلوفسكي ويوري وأيشينباوم ورومان جاكبسون وغيرهم، حيث بذلوا جهودا كبيرة لتأكيد خصوصية الأدب واستقلاليته وسماته التي تميزه عن غيره، إذ تبنوا في دراستهم منهجا علميا على خلاف الدراسات التي كانت سائدة قبل ذلك، والتي كانت تتناول العمل

الأدبي انطلاقا من كونه مرآة عاكسة لسيرة المؤلف وخلفيته وآرائه السياسية والاجتماعية، أو أنها كانت تركز على مختلف السياقات المحيطة بالعمل الأدبي من أجل قراءته وتفسيره، وهذا ما رفضه الشكلانيون، حيث أعلنوا استقلالية العمل الأدبي وخصوصيته، منطلقين من مبدأين أساسيين: الأول ويتعلق بالأدب نفسه، أي السمات الخاصة التي تميز الأدب عما سواه من الأنشطة البشرية الأخرى، أما المبدأ الثاني فيتصل بـ"الحقائق الأدبية" التي يجب أن تتخذ كمنطلق في النقد الأدبي، بدل المسلمات الفلسفية والجمالية وغيرها، التي تعطي صورة نمطية تقديسية للعمل الأدبي، وقد انتقل الشكلانيون الروس إلى دراسة "أدبية الأدب" بدل دراسة الأدب، أي التركيز على مختلف الخصائص التي تجعل العمل أدبيا، وهي المقولة الشهيرة التي نادى بها جاكبسون.

وقد لقيت هذه الدعوة استجابة واسعة لدى العديد من الأدباء والمفكرين، أمثال مايكل باختين ويوري لوتمان وغيرهما، كما كان لها صدى واسعا وتأثيرا كبيرا على المدارس بأكملها، على غرار المدرسة السيميائية وأتباعها في مختلف أنحاء العالم.

3–أشهر أعلام السميائية:

تشارلس ساندرز بيرس، رولان بارت، رومان جاكبسون، أمبيرتو إيكو، مايكل ريفاتير، جوليا كريستيفا، غريماس وغيرهم، هذا بالإضافة إلى اجتهادات دي سوسير في هذا المجال. ويعد بيرس أحد أبرز المؤسسين للفكر السيميائي: "إذ يرى بيرس أن العلامات حسية أو غير حسية تنقسم إلى دوال ومدلولات وعلاقات تربطها معا، وكما هو الحال عند سوسير، فإن بيرس يبحث عن القانون المنتظم الذي يحكم حركة هذه العلاقات بين الدال والمدلول".

4–مراحل التحليل السيميائي:

ـ المستوى السطحي والبنية العاملية / المستوى العميق والمربع السيميائي.

5–مآخذ النقد السيميائي:

أبرز ما يؤخذ على النقد السيميائي هو المبالغة في إقصاء المرجع الخارجي، وبالتالي فهو يقترب كثيرا من منهج النقد الجديد والنقد البنيوي "ومما يؤخذ على الدراسات السيميائية أن معظمها ينهج نهجا شكلانيا يستبعد المحددات الاجتماعية الثقافية، وبالتالي تقترب السيميائية جدا من النهج البنيوي خاصة أنها كثيرا ما توظف المفردات السويسرية مثل العلاة واللغة النظام واللغة الأداء، بل إن روبرت سكولز يذهب إلى أن علم السيمياء لم يعد دراسة العلامات بقدر ما هو دراسة الشفرات، أي دراسة الأنظمة التي تساعد المخلوق الإنساني على إدراك الأحداث والكينونات بوصفها علامات تحمل معنى".

6–التلقي العربي للنقد السيميائي:

انتقل النقد السيميائي إلى النقد العربي عن طريق عمليات الترجمة والمثاقفة مع المنجز النقدي الغربي في القرن العشرين. ويعد كتاب صلاح فضل "نظرية البنائية في النقد الأدبي" سنة 1978 أول محاولة منهجية تتحدث عن السيميائية، فقد أورد في نهاية الكتاب فصلا عنونه ب"النظم السيميولوجية والأدب" حاول من خلاله إثارة بعض القضايا والإشكالات ذات الصلة بالدرس السيميائي، غير أنه لم يقدم مقاربة شاملة واضحة المعالم.

وتوالى إصدار الكتب ذات التوجه السيميائي، مثل كتاب "سيمياء العنوان" لبسام طقوس، و "القارئ والنص والعلامة والدلالة " لسيزا قاسم، و "الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث" لمحمد فليح الجبوري"، و"مقدمة في السيميائيات السردية" لرشيد بن مالك، "تحليل الخطاب السردي– معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق"، "

التحليل السيميائي للخطاب الشعري" لعبد الملك مرتاض، وغيرها من الأسماء المشرقية والمغربية التي أسالت حبرها في هذا النوع من النقد تنظيرا وتطبيقا. وما تجدر الإشارة إليه في التلقي العربي لهذا المنهج هو حدوث أزمة اصطلاحية حادة نظرا لصعوبة الاتفاق على مفهوم واحد ومصطلح واحد.

7–قائمة مراجع مفيدة للمحاضرة:

– سعييد بن كراد: السيمياء مفاهيمها وتطبيقاتها.

– عبد الله العروي: الأيديولوجيا العربية المعاصرة.

– طه عبد الرحمن: روح الحداثة.